فجاء الجند وطوقوها تطويقاً . وكان العمال والمستخدمون يتوافدون عليها مئات مئات من كل صوب وهم يصيحون « الاشتراك او الموت » . فلما قربوا منها وشاهدوا الجند حولها ازدادوا حدة وهياجاً وصاروا يصيحون « ايها الجنود نحن وانتم اخوان لاننا جميعاً من ابناء الشعب . فلا تسيئوا الينا » وكانت الجنود تسمعهم وتحول نظرها عنهم اتباعاً لنظامها

ولما حاول بعض العمال الدخول الى المعامل والمخازن حال الجنود بينهم وبين الدخول . فحدثت فتنة بين الفريقين . واتفق في هذا الحين ان اطلق واحد من العمال طلقاً من مسدس كان معه فاصاب كتف احد الجنود . فعمَّ الاضطراب في تلك الناحية . وصدر الامر الى الجنود بان تجرد السلاح وتهجم لتفرّق العمَّال من غير سفك دم . فهجمت الجنود طاعة لرؤسائها هجمة واحدة . غير ان صفاً واحداً منها كان مؤلفاً من ٥٠ جندياً القى سلاحه وانضمَّ الى العملة . فصرخ العملة حينئذ صراخ الابتهاج والفرح . اما رؤساء الجند فعلا وجوههم الاصفرار من هذا التمرد وخافوا ان يحذو باقي الجند حذو هؤلاء المتمردين فيصير الامر للعمال ويُقضى على السلطة القديمة

لكن النظام العسكري كان متأصلاً في نفوس اولئك الجنود بتربية عدة سنين . ولذلك كان اكثرهم يسيرون كالعميان الى حيث يقودهم رؤساهم ولو كان ذلك ضد مصلحتهم . فتمكن الجند في ذلك النهار من تفريق العمَّال واعادة النظام . ومع ذلك لم يرضَ الشيخ الرئيس حاكم المدن الثلاث ان يعقد جلسة في تلك الليلة في الحديقة لان الافكار كانت شديدة الحماسة

الفصل العاشر

﴿ تحالف الارض والسماء ﴾

على تاركي مبداء الرفق والاخاء

ولما اقبل المساء ساد على المدينة سكون تام . فتنفس الحكام واصحاب الاعمال الصعداء واطمأنت نفوسهم قليلاً . وعاد لمدينة المال شيءٌ من منظرها الاعتيادي بعد ذلك الاضطراب . فكان الناس في القهاوي والساحات العمومية جالسين يستنشقون نسيم المساء وهم يتباحثون بهدوء في حوادث النهار

ثم انتصف الليل فاطفأت الانوار في المدينة ونام جميع السكان . وساد سكوت تام حتى لم يعد يُسمع فيها سوى خرير النهر الجاري يسقي المدن الثلاث وصوت الخفاش في طيرانه في الظلام ووقع اقدام الجنود والحراس الذين كانوا يحرسون المدينة في الليل . وكان هؤلاء الحراس يسمعون حيناً بعد حين في ظلمة الليل صوت طائر بعيد فيقول بعضهم لرفاقه : انَّ عظامي تنتفض كلما سمعتُ هذا الصوت في الليل في احوال كهذه الاحوال

ذلك ان ذلك الصوت كان صوت البوم المشهور بانه نذير الخراب

وبقيت المدينة نائمة بهدوء واطمئنان تحت جنح الدجى حتى الساعة الثالثة قبل الفجر . ففي هذه الساعة انتشرت في انحاء المدينة انوار مختلفة في جوانبها الاربعة . ثم علا الصياح والصراخ . ثم ارتفع الدخان فسدَّ منافس الفضاء . وحينئذ حدث حادث ترتعد له الفرائص وترتجف القلوب . فان المدينة كلها هبت من الرقاد هبة مجنون . وصار الرجال يصرخون والنساء يولولن والاولاد يبكون وينتحبون . ذلك ان لسان النار لعبت في اكثر منازل المدينة خصوصاً في معاملها ومتاجرها ومنازل اصحاب الاعمال فيها . وهجم عليها جماعات كانهم ابالسة خرجوا من الجحيم فصاروا ينهبون ويسلبون . وكان حليم ورفيقه نائمين في فندق من اشهر فنادق المدينة . فلما انتبها وشاهدا النار تاكله اخذا الستائر والسجادات فعملا منها سلماً وتدلّيا عليها الى الارض . ولما باتا في الشوارع ابصرا فيها ما تنفطر له القلوب . ابصرا الانسان بحالته الحيوانية الحقيقية . فان جماعات السلابين النهابين كانوا يهجمون كوحوش ضارية ويكسرون المخازن والحوانيت ويحملون ما فيها . وكانوا يصعدون الى القصور الكبيرة والنار تضطرم فيها وبدل ان ينقذوا النساء والاولاد الذين كانوا يختنقون فيها من الدخان او يحترقون بلهيب النار كانوا يقتلون وينهبون كل ما وصلت اليه ايديهم . اما الجند والمطافيء فماذا تقدر ان تصنع في ثورة عمومية كهذه الثورة . فانه لم يكن في المدينة سوى ١٠ مطافيء ومع ذلك فقد كانت النار مضطرمة في ٥٠٠ منزل . وعن قريب ستصل الى باقي المنازل فتاكلها كلها

وقد ظن حليم لاول وهلة ان هذا المصاب قد حلَّ بمدينة المال وحدها ولكنه لم يلبث ان سمع الصراخ من جهتي مدينة العلم والدين ورأى اللهيب يرتفع من جوانبها . فقال لرفيقه : هذه مؤامرة دبّرها الغلاة المتطرفون ولا شك انها نتيجة الاعلان الذي نُشر امس . فسأله رفيقه وما رأيك فيها . فاجاب حليم لو كنت املك الآن مسدساً ومائة خرطوشة لكنت اُظهر لك رأيي فيها . فانني كنت اذهب واحرق ادمغة كل من اراه في طريقي

من هؤلاء الاباالسة الذين يقتلون وينهبون . ولا شكّ عندي ان عقلاء العمّال والاشتراكيين انفسهم يأنفون من انزال مبادئهم الى هذه الحمأة من اللصوصية والسفالة . فقال له رفيقه : ولكن الا تظن ان هذا التطرف نتيجة لازمة عن تطرف الفريق الثاني

فهمّ حليم ان يجيبه بانه لا يريد ان يعرف عذرًا للسلب والقتل والنهب مهما كان سببه . واذ ارتفع في المدينة صراخ اليأس والاضطراب تمازجهما طلقات البارود . فاصغى حليم وسأل ما هذا . ثم علم ان الجنود قد اخذوا كل ما في ثكناتهم من الرصاص وهجموا بقيادة رؤسائهم على جماعات الثائرين يفتكون بهم فتكاً ذريعاً . فدارت بين الفريقين رحى حرب حقيقية سالت بها الدماء وكان لتلك الدماء على اشعة النيران المتقدة حولها بين حشرجة القتلى وولولة النساء وصراخ الرجال منظر مريع

وكان حليم يُسرح نظره من بعيد في المشاهد الفظيعة التي كان يراها امامه وهو مشتغل البال بها لا يقدر على ردّ شيء منها ومضطرب الفكر لما عسى ان يكون قد جرى للفتاة العزيزة التي شاهدها في البستان عند « قرية الدخول » وكان يفكر بها . لكنه بعد برهة سمع هديرًا عظيماً قريباً فعلم انه صوت انهدام القصور المحترقة . ثم سمع اصوات القتل والبنادق اقرب منه مما كانت . فراى ان يخرج من المدينة فرارًا من البلاء ما دام لا يقدر ان يرده . فاخذ رفيقه وخرج معه من المدينة بنفس متألمة اشد الم وقصدا اكمة قريبة مشرفة على المدن الثلاث وكانت مغروسة اشجارًا يتفيأ السكان ظلها في حر الهجير . فشاهدا منها مشهدًا جميلاً مريعاً . فان السنة النار كانت تندلع في المدن الثلاث فتنير الافق بنور تخالطه سحب من الدخان القاتم تحت سماء مستترة بالغيوم السوداء — كأنّ السماء خجلت من ان تشاهد فظائع البشر في الارض في تلك الساعة . وكانت اصوات القتال تردُ من المدن الثلاث في صفاء ذلك الليل فتزيد ذلك المنظر رهبة وفظاعة

ولكن يظهر ان السماء كرهت ان تبقى واقفة لدى هذه الفظائع الارضية وفقة المتفرّج المشاهد زمنًا طويلاً . نعم ان صبرها طويل ولكن لكل شيء حدًا . ولذلك تناول جوبيتير اقوى صواعقه وارسلها في الفضاء . فلعلع الرعد فوق تلك المدن الثلاث كانذار وتهديد للارض من السماء ان تسكن وتهدأ والا اخربتها . ولكن اهل الارض لم يسمعوا هذا الانذار لان اصوات البارود وصراخ القاتلين والمقتولين كانت تطمُّ اذانهم . فحدث حينئذ ما زاد تلك المناظر رهبة وفظاعة . فان زوبعة هائلة هبت على السهل الذي كانت فيه المدن الثلاث وصارت تكنس كل ما في طريقها . وزأرت الريح وقصفت الرعود ومدت التنانين

خراطيمها من السحاب وهطل المطر كافواه القرب . وكأنّ الارض خشيت من السماء قبل البشر ولذلك اهتزّت تحت المدن الثلاث بزلزلة شديدة . وهكذا تحالف على المدن الثلاث التعيسة النار والقتل والصواعق والزوابع والزلازل . كأنّ السماء تخلّت عنها وقضت عليها قضاءً نهائياً

وكان حليم في ذلك الحين جالساً مع رفيقه تحت شجرة والمطر قد بلل ثيابهما . ومع ذلك فقد كانا ينظران باهتمام الى تلك المدن وينتظران طلوع الفجر . فلما طلع الفجر وصار في امكانهما ان يلمحا المدن لم يشاهدا فيها — واأسفاه — سوى خرائب واكوام سوداء ينبعث الدخان عنها

فصاح حليم حينئذ : واحرباه . اهكذا خربت سدوم وعمورة وبابل ونينوى في القرون الماضية ؟

ولما لفظ حليم هذه العبارة وقع نظره على فرسان قادمين من جهة مدينة المال . فلبث يحدق في جهتهم حتى انكشفوا له وكان الفجر قد زاد اشراقاً . فدبّت حينئذ في نفس حليم قشعريرة شديدة . ذلك ان هؤلاء الفرسان كانوا خمس فتيات وهن هن اللواتي شاهدهن في البستان قرب قرية الدخول . وكانت حسناؤه صاحبة الحلة البيضاء راكبة في وسطهن كما كانت هناك . فصاح حليم برفيقه : ماذا نصنع الآن . اترى هؤلاء الفتيات بقية من بقي من سكان المدن الثلاث فجئن يلجأن الى هذه الاكمة فراراً من الزلازل والنار . عزيزي صادق ماذا نصنع . الا تظنّ انهن يجفلن ويخفن منا اذا شاهدننا هنا

وبعد برهة دنت الفتيات على افراسهن . وكان في يد كل واحدة منهنّ منديل تمسح به دموعها من حين الى حين وهنّ بلباس النوم . وكانت وجوههن صفراء كوجوه الموتى . فلما وقع نظر حليم على هذه الوجوه وتلك الدموع لم يتمالك ان بكى ملء عينيه . وقال في نفسه . ان الابالسة والشياطين حين اتيانهم الشر في الارض لا يفتكرون ان شرهم لا يقع اشد اذاه الا على اللواتي هنّ اقل تحملاً له

ولما صعدت الفتيات الى الاكمة وشاهدن فيها بشراً اغرقن في البكاء . وصرن لا يرفعن مناديلهن عن عيونهنّ الا للنظر الى المدن وما صارت اليه . فاين بكاء ارميا على انقاض « ابنة صهيون » من بكاء هؤلاء العذارى على وطنهنّ المحبوب . لقد فقدن — بفقده — كل شيء . لقد خرجن منه كما يخرج السيف من غمده . فالاهل والمال والمنزل والصداقة ورغد العيش والوطن والعائلة والآمال — كل هذه ذهبت في ليلة واحدة ولم يبقَ في

مكانها غير اكوام الفحم والحجارة واشلاء القتلى ورائحة الدماء والدخان . فيا ايتها السماء لماذا كنت قاسية الى هذا الحد . يا ايها الخالق الحكيم ليتك كنت اكثر رحمة واشد رأفة . لانه اذا استاء هل كل اولئك العتاة القساة عقابك فهؤلاء الضعيفات الطاهرات الرقيقات — والوف غيرهن — لا يستاء هلنه

وكان حليم في تلك الاثناء منزوياً مع رفيقه وقلبه ينقطع حزناً واسفاً . وبعد برهة تقدم وهو يبكي لبكاء الفتيات التعيسات وقال مخاطباً حسناءه وكان يظهر انها اكبرهن سناً وارشدهن رأياً

— هل تسمح سيدتي في حين كهذا الحين ان اعرض عليها وعلى رفيقاتها خدمتي

وكان حليم قد خاطب حسناءه بقلب خلا في تلك الساعة من الحب لان عاطفة الحب قد غرقت حينئذ في عاطفة الحزن والشفقة والرأفة . وهذا شان القلوب الكريمة : ذلك لان عاطفة الحب اكثرها مصوغ من عاطفة محبة الذات واما عاطفة الحزن والشفقة والرافة فاكثرها مصوغ من محبة الغير . والقلب الكريم في ساعة كهذه الساعة يفتكر بغيره لا بذاته

فاشتد بكاء الفتيات عند سؤال حليم واجابته فتاته

— عفواً يا سيدي . ماذا تقدران تعمل . ان ابانا حاكم المدينة كان اول القتلى ومنزلنا كان اول المنازل المحروقة . ولولا مساعدة الجند الذين كانوا نياماً في دارنا لما نجا منا احد . بل كان حل بنا ما حل ببقية السكان الذين مات نصفهم بالسيف والنار والرصاص ونصفهم بالزوابع والزلازل . فكل ما نطلبه منك هو ان تصلي الى الله معنا ان يرحمنا ويعزينا

ورغبة من حليم في ان يروّح هموم الفتاة قليلاً ويشغل فكرها عنها ولو دقيقة ساءلها

— ولكن ما الذي دعا الى هذه الفاجعة الهائلة ياسيدتي بعد ما رايناه من سكينة الاحزاب

فاجابت الفتاة والدموع ملء عينيها

— انني انقل لك ياسيدي السبب الذي ذكره لي ابي امس قبل دخولي الى غرفة النوم . فانه اخذ يدي بين يديه وقال لي : اتعرفين سبب كل هذه القبائح يا بنية . سببها الشراهة والاثرة والطمع . ولست ابرئ منها حزباً دون حزب . لان التبعة واقعة على الجميع . ولا استغرب ان تخسف بنا الارض او تنقض علينا صواعق السماء ما دمنا بعيدين الى هذا الحد عن مبداء الرفق والاخاء .

الخاتمة

ومما لا يحتاج الى بيان ان حليماً استطاع بعد ذلك تعزية فتاته بعض التعزية . وبما انها كانت مع شقيقاتها وارثات المدن الثلاث وما يتبعها من السهول فانها تولت اعادة بناء هذه المدن لتقيم فيها هيئة مبنية على « الرفق والاخاء » تكفيراً عن سيئات المعيشة القديمة . وقد اختارت حليماً زوجاً لها وصادفاً زوجاً لاحدى شقيقاتها ثم زوجت شقيقاتها الثلاث الاخريات ثلاثة شبان من اصدقاء حليم وعاشوا جميعاً في تلك الاماكن مع نسلهم وعالمهم ونسل عالمهم معيشة يحسدهم عليها اهل العصر الذهبي . ولا نعلم هل تتمكن يوماً من الايام من وصف هذه المعيشة الفردوسية التي لم تر الارض مثلها قبلها كما وصفنا معيشة المدن الثلاث القديمة . اما الآن فنكتفي بان نقول بان حبيبة حليم لم تنس ان تقيم ثلاثة آثار في ثلاثة اماكن على سبيل التذكار : المكان الاول البستان الذي شاهدت فيه حليماً اول مرة عند قرية الدسول . والمكان الثاني الاكمة التي وجدته عليها يوم خراب المدن الثلاث . والمكان الثالث الدار التي قتل بها ابوها الشيخ الرئيس

تمت